حاضرة الدنيا

قصة بقلم همنغواي

ترجمة طاهر البطوطي

تزخر مدريد بفتيان يحملون اسم « باكو » ، وهو تصغير اسم فرانسسكو ، وهناك مزحة من مدريد تحكي ان ابا نزل بها ونشر اعلانا في العواميد الخاصة بجريدة « الليبرال » يقول : « الى باكو ، قابلني في فندق مونتانا ظهر الثلاثاء ، غفرت لك كل شيء » . وبعدها تطلب الامر استدعاء فرقة من قوات الشرطة لتفريق الثمانمئة شاب الذين حضروا اجابة على الاعلان . أما « باكو » هذه القصة ، الذي يعمل ساقيا في خان « اللواركا » ، فلم يكن له أب ليغفر له ، كما انه لم يرتكب ما يغفره له الاب . كانت له أختان أكبر منه ، تعمل كلتاهما وصيفة بالخان ، وقد وجدا هذا العمل بفضل احدى وصيفات الخان السابقات التي اتت من نفس بلدة الاختين ، واثبتت جدارتها وأمانتها في العمل ، فاكسبت بذلك بلدتها ونتاج بلدتها سمعة طيبة . وقد دفعت الاختان ثمن تذكرة السفر لشقيقهما الى مدريد ومهدتا له سبيل العمل ساقيا تحت التمرين . جاء « باكو » من قرية مقاطعة « اكستريمادورا » ، تسودها أحوال معيشة بدائية للغاية ، ومنها ندرة الغذاء ، والجهل بوسائل الراحة ، وكان العمل فيها شاقا منذ بدأ يعي ما حوله من أشياء .

وكان فتى حسن البنية ، له شعر فاحم السواد ، متموج الى حد ما ، وبشرة تحسده عليها اخواه ، وابتسامة طوعية صافية . كان نشيطا يؤدي عمله بمهارة ، ودودا لاختيه اللتين كانتا تظهران بمظهر الجمال والصراحة ، وقد أحب مدريد التي بدت له كعادته مكانا قصي المنال . وأحب عمله الذي بدا له غاية في الجمال والرومانسية ، وهو يؤديه تحت الاضواء البراقة في ملابسه البيضاء الخاصة بالسهرة ، والطعام الوفير في المطبخ .

كان هناك ما يقرب من ثمانية الى اثني عشر نازلا قد اعتادوا الاقامة في الخان والاكل في صالة الطعام ، ولكن « باكو » ـ وهو أصغر ثلاثة من الساقين الذين يخدمون على الموائد ـ لم يكن يشعر شعورا حقيقيا بأحد من الموجودين سوى مصارعي الثيران .

وكان مصارعو الثيران من الدرجة الثانية يعيشون في ذلك الخان ، لان موقعه في شارع « سان خيرونيمو » كان طيبا ، والطعام فيه ممتازا ، وأجر الحجرة والاكل فيه رخيصة . ومن المفيد لمصارع الثيران الحفاظ على المظهر ، وان لم يكن مظهر الثراء ، فليكن مظهر الاحترام على الاقل ، لانه في اسبانيا تعلو قيمة التناسق والهيبة على قيمة الشجاعة في نظر الناس ، ولذلك كان المصارعون يقضون ايامهم في « اللواركا » حتى ينتهي اخر قرش لديهم . وليس هناك ما يثبت أن أي مصارع للثيران قد ترك « اللواركا » الى خان اخر أفضل منه أو أكثر بذخا ، لانه لا يمكن ان يرتقي مصارع للثيران من الدرجة الثانية الى الدرجة الاولى ، اما النزول الى مستوى أقل من اللواركا فكان مألوفا طالما ان اي امرىء يستطيع الاقامة فيه ما دام يعمل في أي شيء كان ، ولم تكن فاتورة الحساب تقدم الى النزيل ما لم يطلبها الى ان تدرك المرأة القائمة على شؤون الخان ان الحالة ميؤوس منها .

في هذا الوقت كان بالخان ثلاثة مصارعين ، واثنان من فرسان المصارعة الطيبين ، وراشق سهام ممتاز . وكان « اللواركا » مكانا بذخا لفرسان المصارعة وراشقي السهام القادمين من « اشبيلية » الذين يطلبون السكنى مع عائلاتهم في مدريد خلال فصل الربيع ، الا ان أجرهم كان طيبا ، ولهم عملهم الثابت مع مصارعين مثقلين بعقود عمل كثيرة خلال الفصل القادم ، ولا شك ان دخل كل من هؤلاء الثلاثة « الملازمين » سيكون أكبر من أي واحد من المصارعين الثلاثة الاخرين. وكان مصارع من المصارعين الثلاثة مريضا ويحاول اخفاء ذلك ، والاخر قد ولت أيام شهرته القصيرة كشيء مستحدث ، وكان ثالثهم جبانا .

وكان الجبان يوما ما شجاعا الى درجة غير عادية وماهرا للغاية الى ان اصابه قرن ثور قاس عنيف بجرح في أسفل بطنه في بداية موسمه الاول كمصارع كامل ، وكان ما يزال عالقة به بعض عاداته أيام نجاحه . كان مرحا الى حد المبالغة ، ويضحك دوما بسبب وبدون سبب . وكان في ايام نجاحه مدمنا على تدبير المقالب ، ولكنه تركها الان ، ومن المؤكد انه لم يشعر بعد ذلك بميل اليها . وكان هذا المصارع ذا وجه ذكي صريح ، وكانت تصرفاته يشوبها شيء من التظاهر .

وكان المصارع المريض حريصا على الا يبدو كذلك ، ويحرص على الاكل ولو قليلا من كل صنف من أصناف الطعام التي تقدم على المائدة . وكانت لديه مجموعة كبيرة من المناديل يغسلها ويكويها بنفسه في حجرته ، وقد بدأ في بيع حلل المصارعة اخيرا ، وباع واحدة بثمن بخس قبل عيد الميلاد ، وثانية في الاسبوع الاول من ابريل . كانت حللا باذخة ، اعتنى بها كثيرا دوما ، وكانت لديه واحدة أخرى باقية . وقبل ان يمرض ، كانعمله يبشر بالخير العميم كمصارع ، حتى ولو من ناحية الاثارة . ورغم انه لا يعرف القراءة فقد كان يحتفظ بقصاصات صحف تقول عنه انه خلال ظهوره لاول مرة في مدريد كان أحسن من المصارع الشهير « بلمونتيه » . كان يتناول طعامه وحده على مائدة صغيرة ولايكاد يرفع عينيه الى ما أمامه.

وكان المصارع الذي كان حدثا يوما ما ، قصيرا جدا واسمر اللون ، وبالغ الرزانة . وكان يتناول طعامه ايضا على مائدة منفصلة ونادرا ما يبتسم ، ولا يضحك ابدا . كان من « فايا دوليد » حيث الناس غاية في الجد ، وكان مصارعا ماهرا ، غير ان طريقته قد اصبحت قديمة حتى قبل ان ينجح في اجتذاب حب الجمهور عن طريق مزاياه من الشجاعة والقدرة الرصينة ، ولا يجذب اسمه في الاعلانات الان أي امرىء الى حلبة المصارعة . وكان الشيء الجديد فيه أنه قصير جدا حتى أنه لا يكاد يرى ما وراء كاهل الثور ، غير أنه كان هناك عدد اخر من المصارعين القصيرين ، ولم ينجح هو في فرض نفسه على مزاج الجمهور .

أما فارسا المصارعة ، فكان احدهما نحيفا ذا وجه كوجه الصقر وشعر رمادي ، خفيف البنية ذا ذراعين وساقين في صلابة الحديد ، يرتدي أحذية رعاة البقر في قدميه ، ويشرب حتى الثمالة كل مساء ويتطلع في هيام الى كل امرأة في الخان . اما الاخر فكان ضخما ، أسمر الوجه ، وسيم الشكل ، ذا شعر أسود كالهنود ويدين كبيرتين. كان كل منهما فارسا عظيما ، رغم ما قيل عن الاول من فقدانه الكثير من قدرته بسبب الشراب والتبذل ، وما قيل عن الثاني انه صعب المراس ميال للشجار حتى انه لا يكاد يستمر في العمل مع أي مصارع أكثر من فصل واحد .

وكان راشق السهام رجلا في أواسط العمر ، سنجابي اللون، سريع الحركة رغم تقدم سنه ، وكان يبدو اذ يجلس الى المائدة رجل أعمال على شيء من يسر الحال . وكانت قدماه لا تزالان صالحتين للعمل في هذا الموسم ، وكان من الذكاء والخبرة بمكان حتى ان باستطاعته ان يعمل بانتظام حين تذهب السنون بصلابتهما . ولن يكون هناك فرق حين تذهب سرعة قدميه عن الان سوى انه سيكون خائفا على الدوام بينما هو الان هادىء واثق من نفسه في الحلبة وفي خارجها.

وفي هذه الليلة ، كان الجميع قد غادروا غرفة الطعام ما عدا الفارس ذا وجه الصقر الذي يشرب كثيرا ، ومثمن الساعات ذا الوجه الذي ينم عن مكان نشأته ، والذي يعمل في أسواق ومهرجانات اسبانيا ، وكان كثير الشراب كذلك ، وقسين من « جاليثيا » جلسا الى مائدة عند الزاوية يشربان في سعة ان لم يكن في افراط . وفي هذا الزمان كان النبيذ يضاف الى ثمن الحجرة والاقامة في «اللواركا» وكان النازلان قد جلبا لتوهما زجاجات جديدة من « الفالديبنياس » الى مائدة المثمن ثم الى مائدة الفارس ، واخيرا الى مائدة القسين .

ووقف النذل الثلاثة في نهاية الحجرة ، وكانت القاعدة المتبعة في هذا الخان ان يبقوا في الخدمة حتى ينهض الزبائن من الموائد التي تدخل خدمتها في نطاق كل منهم ، غير ان ذلك الذي كان يقوم على مائدة القسين كان مرتبطا بموعد لحضور اجتماع نقابة الفوضويين ووافق « باكو » على ان يحل محله في خدمة هذه المائدة .

وفي الطابق العلوي ، كان المصارع المريض يرقد وحيدا على فراشه ووجهه الى اسفل . وجلس المصارع الذي لم يعد حدثا ينظر من النافذة مستعدا للخروج الى القهوة ، بينما كانت اخت « باكو » الكبرى في حجرة المصارع الثالث الجبان ، وكان يحاول اقناعها بعمل شيء ترفض ادائه وهي تضحك . كان يقول لها : ـ « هيا ايتها المتوحشة الصغيرة .

وقالت الاخت : ـ كلا ، لماذا أفعل ذلك ؟

ـ من أجلي ..

ـ لقد أكلت والان تريدني تحلية ..

ـ مرة واحدة ، ما الضرر في ذلك ؟

ـ اتركني ، قلت لك اتركني ..

ـ انه شيء بسيط للغاية .

ـ قلت لك اتركني ...

وفي الاسفل ، في حجرة الطعام ، قال النادل الطويل الذي فات موعد انتهائه من العمل : « انظر الى هذه الخنازير السوداء وهي تشرب » .

فقال النادل الثاني : « ليس هكذا يصح الحديث ، انهم زبائن لطاف ، فهم لا يفرطون في الشراب » .

فقال الطويل : « هذه طريقة حسنة للحديث بالنسبة لي ، فهنا لعنتا اسبانيا الاثنتان : المصارعون والقسس » .

وقال النادل الثاني : « ولكن ليس الموضوع موضوع مصارع معين او قس معين بالذات » .

فقال النادل الطويل : « أجل ، ولكن عن طريق الفرد فقط يمكنك ان تهاجم الطبقة ، من الضروري ان تقتل المصارعين الافراد والقسس الافراد ، جميعهم ، فعندئذ لا يوجد احد منهم » .

فقال النادل الاخر : « وفر هذا الى حين الاجتماع » .

قال النادل الطويل : « انظر الى وحشية مدريد ، الساعة الان الحادية عشرة والنصف ، وما زال هؤلاء يعبون الشراب » .

فقال النادل الاخر : « انهم لم يبدأوا الاكل الا في العاشرة ، وكما تعرف هناك أصناف كثيرة للطعام ، وهذا النبيذ رخيص الثمن وقد دفعوا ثمنه . انه ليس شديد المفعول » .

وتساءل النادل الطويل : « كيف يمكن ان ينجح تضامن للعمال وهناك أغبياء مثلك » .

فقال النادل الاخر الذي كان في حوالي الخمسين من عمره : لقد عملت طول عمري ، ويجب علي ان أعمل ما بقي لي من العمر . ليست لدي اية شكاية تجاه العمل ، العمل هو الشيء الطبيعي » .

ـ « أجل ، ولكن افتقاد العمل يقتل المرء » .

فقال النادل الاخر : « لقد عملت على الدوام . اذهب الى اجتماعك ، ليس هناك ضرورة لبقائك » .

فقال النادل الطويل : « انك زميل طيب ، ولكن ينقصك الايمان بعقيدة » .

فقال النادل العجوز : « من الافضل افتقاد ذلك عن افتقاد العمل ، اذهب للاجتماع » .

ولم يقل « باكو » شيئا ، بل انه لم يكن يفهم السياسة ، ولكن كان يسره دائما ان يستمع الى النادل الطويل وهو يتحدث عن ضرورة قتل جميع القسس ورجال الشرطة . كان النادل الطويل لديه رمز للثورة ، والثورة ايضا فكرة رومانسية ، وكان هو نفسه يرغب ان يكون كاثوليكيا طيبا ، ثائرا ، وان يكون لديه عمل منتظم مثل هذا على شرط ان يكون مصارعا للثيران في ذات الوقت .

قال « باكو » : « اذهب الى الاجتماع يا « اجنائيو » ، سوف أتولى عنك عملك » .

فقال النادل العجوز : « سنتولى عنك نحن الاثنان » .

فقال « باكو » : « يكفي واحد فقط ، اذهب الى الاجتماع » .

فقال النادل الطويل : « اذن سأذهب ، وشكرا » .

وفي هذا الوقت ، في الطابق الاعلى ، كانت أخت باكو قد نجحت في الافلات من قبضة مصارع الثيران في مهارة تشبه مهارة المصارعين في الافلات من طوق خصومهم ، وقالت في غضب هذه المرة : « هذه سمة الناس الجائعين . مصارع ثيران فاشل ، بحملك الثقيل من الخوف . اذا كان لديك الكثير من هذه الجرأة ، استعملها في الحلبة » .

ـ هذه طريقة العاهرات في الحديث .

ـ العاهرة ايضا امرأة ، ولكني لست عاهرة .

ـ ستكونيها .

ـ لن يكون ذلك على يدك .

فقال المصارع : « اتركيني » . وكان قد شعر الان بعد ان صدته الفتاة ورغبت عنه بعرى جبنه وخوفه يعود .

وقالت الاخت : « أتركك ؟ ومن لم يتركك ؟ الا تريدني ان أرتب الفراش ، انني أتناول أجرا على ذلك » .

فقال المصارع وقد تغضن وجهه العريض الحسن في تجهم يشبه البكاء : « اتركيني ، أيتها العاهرة ، أيتها العاهرة الصغيرة القذرة » .

فقالت اذ هي تغلق الباب خلفها : « ايها المصارع ، يا مصارعي !»

وفي داخل الحجرة ، جلس المصارع على الفراش ، وما زال يعلو وجهه ذلك التجهم الذي كان يحوله في الحلقة الى ابتسام دائم كان يخيف النظارة الجالسين في الصف الاول والذين كانوا يدركون حقيقة ما يشاهدون . وكان يردد لنفسه في صوت مسموع : « وهذا، وهذا ، وهذا . » كان يستطيع ان يتذكر أيام نجاحه ، ولم يكن قد مضى على ذلك سوى ثلاث سنوات . كان يستطيع ان يتذكر حلة المصارعة الثقيلة الموشاة بالذهب ، على كتفيه ، في ذلك الاصيل القائظ من شهر مايو ، حين كان صوته في الحلبة لا يختلف عن صوته اذ هو جالس على القهوة ، وكيف كان يصوب النصل المرهف المشرع الطرف الى ذلك المكان في أعلى الكتف الذي يسوده الغبار ، على كتلة العضلات السوداء ذات الزغب فوق القرنين العريضين مقوضي الاشجار ، ذوي الطرفين المتشققين اللذين يهبطان الى اسفل اذ هو يهم بقتل الثور، وكيف يغوص السيف في جسمه في سهولة مثل كومة من الزبد اليابس ، وراحة يده تدفع بمقبض السيف ، وذراعه اليسرى تلتوي الى اسفل ، وكتفه اليسرى الى الامام ، مرتكزا بثقله على ساقه اليسرى ، أما تلك المرة فلم يكن ثقله على ساقه . كان ثقله على اسفل

بطنه ، وحين رفع الثور رأسه غاص القرن في جسده وتأرجح عليه مرتين قبل ان يشدوه عنه . والان اذا ما ذهب لقتل الثور في الحلبة ونادرا ما يفعل ، لم يكن في استطاعته النظر الى القرنين ، لكن ... اني لاية عاهره ان تدرك كيف يعاني قبل ان يقدم على المصارعة ! وماذا جرب هؤلاء الذين يسخرون منه ! انهم جميعا عاهرات ، ويدركون كيفية استغلال ذلك .

وأسفل ، في حجرة الطعام ، جلس الفارس ينظر الى القسين . لو كانت هناك سيدات في الحجرة لتطلع اليهن ، اما اذا لم يكن هناك سيدات فانه يجد متعته في التطلع الى اي أجنبي ، انجليزي مثلا ، ولما لم يكن هناك سيدات او أجانب في الحجرة آنذاك ، فقد أخذ يحملق في معة ووقاحة في القسين . وبينما هذا مشغول بالحملقة نهض المثمن ذو الوجه المتميز وطوى منشفته وخرج تاركا نصف النبيذ في الزجاجة الاخيرة التي طلبها . ولو كان قد دفع حسابه في الخان لكان قد أفرغ الزجاجة .

ولم يرد القسان حملقة الفارس بمثلها . كان أحدهما يقول :

« منذ عشرة أيام وانا هنا أحاول مقابلته ، وكل يوم أجلس في غرفة الاستقبال ثم لا يقابلني » .

ـ ماذا يمكن ان نفعل ؟.

ـ لا شيء .. ماذا يمكن للمرء آن يفعل ؟ لا يمكن معارضة السلطات » .

ـ لقد مكثت هنا أسبوعين دون فائدة ، انني انتظر ولن يقابلونني.

ـ اننا من البلدة المهجورة . حين تنفذ النقود يمكننا ان نعود

ـ وهكذا بدأ المرء يتفهم الفعل الذي قام به أخونا « باسيليو » ..

ـ ما زلت لا أثق ثقة حقيقية في تكامل « باسيليو الفاريث » .

ـ ان مدريد هي المكان الذي يتعلم فيه المرء كيف يفهم . مدريد تقتل اسبانيا .

ـ لو انهم يقابلون المرء ثم يرفضون .

ـ كلا ، يجب ان يهدمك الانتظار ويبليك .

ـ حسن .. سنرى .. يمكنني الانتظار مع الاخرين .

وفي هذه اللحظة نهض الفارس على قدميه ، وسار الى مائدة القسين وتوقف عندها ، برأسه الاسمر ووجهه الذي يشبه الصقر ، يحملق فيهما ويبتسم ..

وقال قس منهما لزميله : « انه مصارع ثيران » .

فقال الفارس : « ومصارع جيد » . وخرج من غرفة الطعام في حلته السمراء ، أنيق الخصر ، مقوس الساقين ، يرتدي سراويل ضيقة فوق حذائه الرعوي عالي الكعبين الذي يدق على الارض اذ يترنح في انتظام رتيب وهو يبتسم لتعسه . كان يعيش في عالم من الكفاءة الذاتية ، عالم صغير ، محكم ، مهني ، من الاحتفال كل ليلة بالمشروبات الروحية ، ومن الوقاحة . والان ، أشعل سيجارا ، وأمال قبعته على زاوية من رأسه ومضى عبر القاعة الى القهوة .

وغادر القسان الغرفة توا بعد الفارس ، في عجلة ، شاعرين بانهما اخر من بقي في قاعة الطعام ، ولم يعد هناك بالغرفة سوى « باكو » والنادل متوسط العمر . ونظفا الموائد وحملا الزجاجات الى المطبخ .

وكان الغلام الذي يغسل الاطباق في المطبخ كان يكبر « باكو » بثلاثة أعوام ، وكان مفعما بالسخرية والشعور بالمرارة .

وقال النادل متوسط العمر وهو يصب كوبا من الفالديبنياس للغلام : « خذ هذا » .

وقال الغلام وهو يتناول الكوب : « ولم لا » ..

وقال النادل : وأنت يا « باكو » ؟..

وقال « باكو » : شكرا لك .. وشرب ثلاثتهم .

وقال النادل متوسط العمر : « سأذهب الان » .

وقالا له : « مساء الخير » ..

وذهب ، وبقيا وحدهما . وتناول « باكو » منشفا كان احد القسين قد استعمله ووقف منتصبا ، ثابت الكعبين ، وأرخى المنشف الى اسفل ، ولوح بذراعيه ورأسه يتابع الحركة في اهتزاز يمثل حركة مصارعة الثيران البطيئة . وتحول وتقدم بقدمه اليمنى قليلا ، وأجرى هجوما ثانيا حصل فيه على سيطرة بسيطة على الثور الخيالي ، وهجم لثالث مرة في بطء ودقة وخفة تامة ، ثم جمع المنشفة الى وسطه ودار بعجزيه بعيدا عن الثور في نصف حركة أخرى .

وكان غاسل الاطباق ، ويسمى « هنري » ، يراقبه في انتقاد واستهزاء . قال له : كيف حال الثور ؟

قال باكو : شجاع للغاية ، انظر .

وانتصب بقامته الهيفاء ، وأجرى اربع حركات هجوم اخرى بالغة الاحكام ، في خفة ورشاقة ودقة .

وقال « هنري » وهو مرتد ميدعته ، مرتكزا على مصرف المياه وممسكا بكوب نبيذه : وما حال الثور ؟

وقال باكو : ما زالت فيه بقية ..

فقال هنري : انك تشعرني بالسقم .

ـ لماذا ؟

ـ انظر .

وأزاح هنري ميدعته ، ثم اشاح للثور الخيالي ، وقام بأربع حركات مصارعة كاملة مسترخية على طريقة الفجر ، وأنهاها بدورة جعلت الميدعة تلتوي على شكل قوس حاد قريبا من أنف الثور اذ هو يمضي بعيدا عنه .

قال : « انظر الى هذا ، ومع ذلك فانا أغسل الاطباق » .

ـ لماذا ؟..

فقال هنري : « الخوف ، الخوف . نفس الخوف الذي تشعر به في الحلبة مع الثور » .

قال باكو : كلا ، أنا لا أخاف .

فقال هنري : « كاذب ، الكل يخاف . ولكن المصارع يستطيع ان يتحكم في خوفه حتى يتمكن من السيطرة على الثور . لقد ذهبت الى مصارعة للهواة وشعرت بخوف شديد حتى انني لم استطع منع نفسي من الفرار ، ونظر الجميع الى المسألة على انها شيء طريف . وعلى ذلك ستخاف انت ايضا . ولو لم يكن الخوف لتحول كل ماسح أحذية في اسبانيا الى مصارع للثيران . انك من الريف ، وستخاف أكثر مما أخاف انا » .

قال باكو : كلا ...

لقد مارس المصارعة مرات كثيرة في خياله ، وشاهد القرون مرات عديدة ، وفم الثور المبلل ، واذناه تختلجان ، ثم تهبط رأسه الى أسفل ويبدأ الهجوم ، وتدق حوافره على الارض ، ويمر به الثور الحار بينما هو يهز الوشاح . ويهاجمه مرة أخرى حين يهزه ثانية ، وثانية ، وثانية ، وثانية ، الى ان ينتهي بثني الثور حوله في نصف حركته العظيمة ، ويسير متثنيا ، وقد علقت بغض شعرات الثور في وشى حلته الذهبية من فرط قربه منه ، والثور واقف كأنما قد نام نوما مغناطيسيا ، والجمهور يهتف مصفقا .. كلا ، لن يخاف . ربما يخاف الاخرون ، أجل .. ولكن .. هو . انه يعلم انه لن يخاف. وحتى لو حدث وشعر بالخوف فقد كان يعلم انه يستطيع القيام بها على أي حال . انه واثق من نفسه . قال : « لن أخاف » .. وقال هنري مرة اخرى : « كاذب » . ثم قال : « لماذا لا تجرب ذلك ؟ » .

ـ كيف ؟

قال هنري : انظر ، انك تحسب حساب الثور ولكنك تغفل القرون ، للثور قوة عظيمة في قرونه تلك التي تعمل عمل السكين ، فهي تطعن كالحربة ، وتقتل كالهراوة ، انظر .. » وفتح أحد أدراج الموائد وتناول منه سكينتي لحم . وقال : « سوف أربط هاتين الى ارجل احد الكراسي ، ثم سأمثل دور الثور معك حاملا الكرسي في مقدمة رأسي ، والسكينتان تمثلان القرنين ، فاذا نجحت في محاورة هاتين فانك عندئذ تعني شيئا » .

فقال باكو : « أعرني ميدعتك ، سوف نفعل ذلك في حجرة الطعام » .

قال هنري فجأة دون نبرة مرارة : « كلا ، لا تفعل ذلك يا باكو » .

قال باكو : بلى ، اني لست خائفا .

ـ ستشعر بالخوف حين ترى السكينتين تندفعان نحوك .

قال باكو : سنرى ، اعطني الميدعة .

وفي هذه الاثناء ، حين كان هنري يربط سكينتي اللحم نعيلتي النصل ، مرهفتي الحد ، جيدا الى ارجل المقعد بمنشفتين ملوثتين حول النصف الاسفل من كل سكين ، يلفهما باحكام ويعقد عليهما ، كانت اختا « باكو » ، الوصيفتان ، في طريقهما الى السينما لمشاهدة « جريتا جاربو » في فيلم « انا كريستي » . وكان واحد من الفسين يجلس في ملابسه الداخلية يقرأ في كتاب الصلوات ، والاخر يردي قميص نوم ويتلو صلواته على المسبحة ، بينما ذهب جميع المصارعين ما عدا ذلك المريض الى قهوة « فورنوس » ، حيث كان الفارس الضخم الاسود الشعر يلعب البلياردو ، والمصارع الرزين القصير يجلس الى مائدة مزدحمة وأمامه القهوة واللبن ، ومعه راشق السهام متوسط العمر ، وعمال جادون اخرون .

وكان الفارس الاشيب الرأس الذي يشرب كثيرا ، جالسا وامامه كأس من نبيذ « الكاتالاس » ، يحملق في سرور الى المائدة التي جلس اليها المصارع الذي ذهبت شجاعته مع مصارع اخر نبذ السيف ليعود راشقا للسهام ثانية ، ومعهما اثنان من العاهرات تبدو عليهما مظاهر الانهماك .

ووقف المثمن على أحد جوانب الطريق يتحدث مع بعض الاصدقاء وكان النادل الطويل في اجتماع نقابة الفوضويين ينتظر فرصة للحديث . وجلس النادل متوسط العمر في شرفة قهوة « الفاريت » يشرب زجاجة صغيرة من البيرة . وكانت المرأة التي تملك خان « اللواركا » نائمة في فراشها ، ترقد فيه على ظهرها والوسادة تحت قدميها ، ضخمة ، سمينة ، شريفة ، نظيفة ، سهلة التعامل ، متدينة للغاية ، ولم تفتها تلاوة صلاة يومية لزوجها الذي مات منذ عشرين عاما . وكان المصارع المريض في غرفه ، وحيدا ، يرقد على فراشه ووجهه الى أسفل وقد أسند منديلا الى فمه .

والان ، في غرفة الطعام الخالية ، ربط هنري العقدة الاخيرة في المنشفتين اللتين طوقتا السكينتين الى أرجل المقعد ، ثم ربعه ، ووجه الارجل وعليها السكينتين الى الامام وامسك بالمقعد فوق رأسه وطرفا السكينتين متوجهان الى الامام مباشرة ، واحدة في كل جانب من رأسه .

قال : انه ثقيل ، انظر يا باكو .. انه خطير جدا .. لا تفعل ذلك » .

كان ينضح بالعرق .

ووقف باكو في مواجهته ، ممسكا بالميدعة ، ناشرا اياها ، وقد أمسك بثنية منها في كل يد ، وابهاماه الى أعلا ، والاصبع الاول الى اسفل ناشرا اياها ليجذب انتباه الثور .

قال : « اهجم مباشرة ، در كالثور ، اهجم مرات عديدة كما تريد » . وسأل هنري : ولكن متى سنعرف المرة التي يجب ان نصد الهجوم فيها ؟ من الافضل تحديدها بثلاث مرات ثم تقوم بنصف حركة بعدها » .

قال باكو : حسن ، ولكن اهجم مباشرة . ها .. ايها الثور ! تعال ، تعال ايها الثور الصغير .

وأقبل هنري نحوه وقد خفض رأسه الى اسفل ، وهز باكو الميدعة بمحاذاة نصل السكين حين مرت بالقرب من بطنه ، وحين اجتازته كانت بالنسبة له قرنا حقيقيا ، ابيض الطرف ، أسود ، صقيلا . وحين مر به هنري ودار ليهجم ثانية عليه ، كان ثور حار الدماء هو الذي يهاجمه ، فدار كالقط وأتاه ثانية وهو يهز الوشاح في بطء . ودار الثور وهاجم مرة اخرى ، وتقدم بقدمه بوصتين وهو يراقب النصل المشرع ، ولكن السكين لم يمر ، بل انحرف وغاص في جسده كما لو كان زق خمر . وتفجر انبثاق حار مبخر فوق كتلة النصل الداخلية وحولها ، وهتف هنري : « آه ، آه ، دعني أخرجها دعني أخرجها » .

وانزلق باكو الى الامام على المقعد وهو ما زال ممسكا بالميدعة، الوشاح ، وهنري يجذب المقعد بينما السكين تتقلب في جسده ، في جسده ، في « باكو » ..

وأخرجت السكين ، وجلس على الارض في وسط البحيرة الدافئة التي تتسع . وقال هنري : « ضع المنشفة عليه ، امسكه . امسكه جيدا .. سأجري في طلب طبيب .. يجب أن نمسك النزيف »

قال باكو : « كان يجب ان يكون هناك قدح مطاطي » . كان قد رأى ذلك يستخدم في الحلبة في مثل هذه الحالات .

قال هنري وهو يبكي : « سأعود حالا ، ما أردت سوى ان أريك خطورة ذلك » .

قال باكو وصوته يبدو آتيا من بعيد : « لا عليك ، ولكن احضر الطبيب » ..

في الحلبة يرفعونك ويحملونك ، ويجرون بك الى غرفة العمليات فاذا نزفت شرايين الفخذ اخر فطراتها من الدماء قبل ان تبلغها فانهم يستدعون القسيس .

قال باكو وهو يمسك بالمنشفة في احكام حول أسفل بطنه : «اخطر أحد القسس » . لم يكن بامكانه ان يصدق ان هذا حدث له .

ولكن هنري جرى عبر طريق سان خيرونيمو الى محطة الاسعاف الاولية التي تعمل ليل نهار ، وكان باكو وحيدا . جلس في البداية ، ثم تكوم مقعيا ، ثم تمدد على الارض ، حتى انتهى كل شيء ، شاعرا ان حياته تتسلل منه كما تتسرب المياه القذرة من حوض الاستحمام حين تنزع سدادته . كان فزعا ، يشعر بالخوار . وحاول ان يتلو صلاة التوبة ، وتذكر بدايتها ، ولكن قبل ان يقول ، بأسرع ما يمكنه : « آه يا الهي ، انني آسف أشد الاسف لاني أخطأت في حقك يا من تستحق حبي ، وانني أعزم عزما قويا ان .... » شعر بالاغماء ينتابه وكان يرقد ووجهه ناحية الارض ، وانتهى الامر بسرعة كبيرة ، ان شريان الفخذ المقطوع ينزف دمه بأسرع مما نتصور .

وحين كان طبيب مركز الاسعافات الاولية يصعد الدرج مصطحبا رجل الشرطة الذي أمسك بذراع « هنري » ، كانت أختا « باكو » ما زالتا في دار السينما « بالجران فيا » حيث شعرتا بخيبة أمل شديدة في فيلم جريتا جاربو ، الذي أظهر نجمة السينما العظيمة في بيئة حقيرة بائسة ، في حين كانتا معتادتين رؤيتها محاطة بالابهة والعظمة . واستاء الجمهور من الفيلم الى درجة بالغة ، واعلن احتجاجه بالصفير ودق الاقدام على الارض . أما نزلاء الخان الاخرون فكانوا تقريبا يفعلون ما كانوا يقومون به حين وقعت الحادثة ، ما عدا ان القسسين كانا قد انتهيا من صلواتهما واستعدا للنوم ، وان الفارس الاشيب الشعر قد انتقل بشرابه الى المائدة التي تجلس عليها العاهرتان المنهكتان ، وبعد قليل غادر المقهى بصحبة واحدة منهن ، وكانت تلك التي كان المصارع الذي فقد شجاعته يأمر لها بكؤوس الشراب .

ولم يدر الصبي « باكو » بأي شيء من هذا ، ولا بالاشياء التي سيقومون بها في اليوم التالي والايام التالية بعد ذلك . لم تكن لديه أية فكرة عن الطريقة التي يحيون بها في الحقيقة ، والطريقة التي ينتهون بها ، بل انه لم يتحقق انهم قد انتهوا . مات مفعما بالاوهام، كما يقول المثل الاسباني . لم يكن لديه كثير وقت في حياته ليتخلص من آي منها ، أو حتى ليكمل صلاة التوبة في النهاية .

بل لم يكن لديه ما يكفي من الوقت حتى يشعر بخيبة الامل في فيلم « جريتا جاربو » الذي أصاب مديد كلها بخيبة الامل مدة أسبوع كامل .

ترجمة : ماهر البطوطي